

الفصل الاول

الاحتلال البريطاني للعراق

اسباب الاحتلال البريطاني للعراق ومراحله

اكتسب العراق اهمية كبرى في السياسة البريطانية، منذ بداية النشاط البريطاني في الخليج العربي، في الربع الاول من القرن السابع عشر، وقد تنوعت المصالح البريطانية في العراق، فهناك المصالح الاقتصادية التي تركزت على شراء المواد الاولية الرخيصة من جلود وصوف وعرق سوس وخيول، وعملت بريطانيا على ربط الاقتصاد العراقي بالرأسمال الاجنبي، وللتدليل على نمو المصالح الاقتصادية البريطانية في العراق، نذكر تأسيس عدد من الشركات البريطانية امثال شركة لنج وشركة كيري مكنزي وشركة اندرووير، وغيرها من الشركات البريطانية، التي لم يقتصر عملها على النشاط التجاري الصرف، بل كان وجودها يمثل تغلغلاً "استعماريًا" كانت له ابعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث تمكن رجال هذه الشركات من الاتصال ببعض الشيوخ

والملاكين بالاضافة الى التجار والجماعات الاخرى المستفيدة، وراحوا عن طريق هؤلاء يهيئون الافكار لتقبل وجودهم⁽¹⁾.

اما اهمية العراق الاستراتيجية بالنسبة للسياسة البريطانية فتتمثل في موقع العراق على الخليج العربي الذي هو جزء من طريق الهند البري الحيوي لمواصلات الامبراطورية البريطانية، وقد اكدت هذه الاهمية بعثة جسني الاستطلاعية في عام 1834 لدراسة امكانيات نهر الفرات الملاحية، وما عقب ذلك من مجهودات بريطانية تناولت حقولاً متعددة كارسال بعثات التنقيب الاثرية وانشاء خطوط التلغراف، وتأسيس الشركات الملاحية.

وفي مطلع القرن العشرين بلغت اهمية العراق الاستراتيجية درجة كبرى، نتيجة لاكتشاف النفط في عبادان، وكانت حماية حقول نفط عبادان، من جملة الاسباب التي تذرعت بها بريطانيا عند احتلال البصرة⁽²⁾.

وقد دفع تزايد المصالح البريطانية في العراق الساسة البريطانيين الى اعتبار وادي الرافدين مجالاً "حيوياً" للنشاط السياسي والاقتصادي البريطاني، ووضح اللورد كيرزن هذه الاهمية مرة اخرى في عام 1911 حينما قال:

"من الخطأ ان نفترض ان مصالحنا السياسية تنحصر في الخليج، فانها ليست كذلك كما انها ليست منحصرة بالمنطقة الواقعة ما بين البصرة وبغداد، وانما تمتد شمالاً الى بغداد نفسها"⁽³⁾.

وتأكيداً لهذه الاهمية بدأت الجهات العسكرية البريطانية بوضع الخطط العسكرية لاحتلال جنوب العراق قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى، فقد شكلت حكومة الهند لجنة رباعية عام 1911 لتقوم بدراسة الاجراءات التي يجب ان تتخذها لحماية مصالحها في جهات العراق الجنوبية، وقد اوصت اللجنة في تقريرها (12 كانون الثاني 1912) باحتلال الفاو والبصرة⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من عدم الاخذ بمقترحات اللجنة في حينها لانها سابقة لاوانها الا ان القناصل الانكليز في بغداد والبصرة والموصل اخذوا باعداد المعلومات اللازمة عن الجيش العثماني: اعداده وتجهيزه وقدرته على التحرك، فضلا عن القيام بأحضار الخرائط اللازمة للاعمال العسكرية.

وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى في آب 1914، وتعاطف الدولة العثمانية مع المانيا، بدأت بريطانيا تهيب قواتها العسكرية للحفاظ على احتلالها للخليج العربي، ودعا الفريق الاول سير (ادمون بارو) Sir Ednund Barrow السكرتير العسكري لوزارة الهند الى توجيه قوة عسكرية الى المحمرة وعبادان، وعلل هذا الاقتراح بقوله:

"حيث مراكز النفط والتجهيزات، في عبادان وخط الانابيب من حقول النفط معرضة للتدمير المباشر. وان المصالح البريطانية في بغداد والبصرة ستزول من الوجود، وان شيخي المحمرة والكويت، ربما يهاجمان... وفي هذه الحالة سنبدد في الهواء كل مكائنا وكل جهودنا لسنين وسيغدوا موقفنا في الخليج نفسه متقللاً"⁽⁵⁾

دفع هذا التقدير الحكومة البريطانية الى ارسال قوات عسكرية بريطانية الى الخليج العربي في (2 تشرين الاول 1914) وفي اليوم التالي اسندت قيادة القوات البريطانية الى العميد ديلا مين Delamin.S.W واعطى لتلك القوات الرمز "D" وحدد اطار عملها بـ (احتلال عبادان وحماية مصافي النفط وخط الانابيب، وتغطية انزال المدادات اذا غدت هذه ضرورية، والظهور للعرب باننا نعتزم مساعدتهم ضد الاتراك)⁽⁶⁾.

ويحدد وزير الهند هدفاً "اخراً" لارسال هذه القوات بقوله "كنت اعتبر على الدوام بان اهم ما نستهدفه من ارسال (القوات البريطانية) هو التأثير على الشيوخ

العرب، اما حماية منابع النفط فقد كانت شيئاً "ثانوياً" عندي من بين الامتيازات الاخرى" (7).

تغيرت وجهت القوات البريطانية، وتقرر ان يكون الانزال في البحرين بدلاً من عبادان او المحمرة، بانتظار تعليمات جديدة، وعين السير برسي كوكس ضابطاً "سياسياً" في الغزو المرتقب، وفي (5 تشرين الثاني 1914) انحازت الدولة العثمانية الى جانب المانيا في الحرب، فصدرت التعليمات الى العميد ديلامين للتوجه نحو الفاو، وزود بالمعلومات اللازمة عن المنطقة كالتكوين الجغرافي والعشائري والقوات العثمانية في العراق عامة، والبصرة خاصة: تعداداً وتدريباً وتسليحياً وتوزيعياً، وكانت هذه التخمينات تقترب كثيراً من الواقع العسكري العثماني.

وفي عشية الغزو العسكري البريطاني اصدر السير برسي كوكس الضابط السياسي المرافق للقوات البريطانية بياناً زعم فيه ان حكومته قد اجبرت على الحرب نظراً للموقف المعادي للعثمانيين، لذا ارسلت بريطانيا قواتها لحماية تجارتها واصدقائها، واجلاء... الاتراك من المنطقة، وان لاعداء لها مع العرب شريطة الا يحموا الجنود "الاتراك" ولا يحملوا السلاح في تجوالهم، واكد مهدياً على منع ذلك، كي يجرّد السكان، من وسائل الدفاع عن انفسهم في ظرف غابت فيه السلطة المحلية الحامية، وبذلك يتسنى لجيشه الغازي ان يتوغل بسهولة.

نزلت القوات البريطانية في الفاو في ساعة متأخرة من يوم (6 تشرين الثاني) ورفع عليها العلم البريطاني بعد مقاومة طفيفة اضطر بعدها الجنود العثمانيون الى الانسحاب، وبذلك تمكنت بريطانيا من السيطرة على مدخل شط العرب.

اما السلطات العثمانية في البصرة فلم يصل اليها خبر احتلال الفاو الا في اليوم التالي من المدنيين الذين غادروا المنطقة الى البصرة. فاستعدت

القوات العثمانية لتصد التقدم البريطاني باتجاه البصرة. الا ان حركة هذه القوات كانت غير نظامية ولا مدروسة بل مليئة بالاخطاء سواء في شكل التقدم او في التعبئة والتموين، ولم تقدم الاستخبارات العثمانية اية معلومات لقائد القوة عن الموقع البريطاني، ولم تكن لديه خريطة للمنطقة، وقصارى القول ان القيادة العثمانية اعتمدت على الارتهالية دون التخطيط والحسابات العسكرية الدقيقة.

اما الخطط العسكرية والامدادات البريطانية، فكانت مبنية على حسابات دقيقة وتقديرات جيدة منذ بداية تحرك القوات البريطانية من الهند، مكنت البريطانيين من دحر العثمانيين في معارك السنية وسيحان وكوت الزين وفتح الطريق امام هذه اقوات لاحتلال مدينة البصرة حيث انسحبت القوات العثمانية باتجاه القرنة، ودخلتها القوات البريطانية في يوم (22 تشرين الثاني). وفي اليوم التالي استعرضت القوات البريطانية في البصرة، ورفع العلم البريطاني على سطح احد المباني الرئيسية، واطلقت البحرية البريطانية مدافعها تحية له، واذاغت السلطة المحتلة خطاباً دعت فيه اهالي البصرة الى التعاون معها باعتبارها السلطة الوحيدة القائمة واقعياً، ووعد الخطاب بالحرية والعدالة.

قامت القوات البريطانية بعد احتلالها لمدينة البصرة، باقامة المعسكرات لسكنى قواتها وانزال معداتها العسكرية والقيام بدوريات للحراسة والبحث عن الاسلحة في القرى المحيطة بالبصرة، وتقرر مطاردة القوات العثمانية المنسحبة باتجاه القرنة والزبير، وقد اعطى الاحتلال القرنة اهمية كبيرة لموقعها العسكري ولصلاحيه الملاحة الى الخليج وغنى المنطقة الزراعية واحاطتها باقليم الاحواز، فتقدمت القوات البريطانية واحتلت المدينة بعد استسلام القوات العثمانية في يوم (9 كانون الاول 1914).

وبدخول القرنه اصبح البريطانيون يسيطرون على ملتقى نهري دجلة والفرات والطريق الملاحي الى الخليج العربي⁽⁸⁾.

لقد اوضحت الانتصارات البريطانية السريعة ضعف الاتراك وعدم استعداد القيادة العثمانية في العراق للموقف بوجه الغزو البريطاني لهذا اعاد العثمانيون النظر في تنظيم قواتهم النظامية في العراق، وعملوا على كسب تأييد العراقيين لهم عن طريق اعلان الجهاد المقدس الذي كان له اثره في توجيه الرأي العام المتأثر بالعواطف الدينية الى حمل السلاح بوجه البريطانيين وبلغ عدد المتطوعين بين (10-15) الف مقاتل، وقد توجه هؤلاء لمقاتلة الانكليز في الشعيبة قرب البصرة⁽⁹⁾.

احتشدت القوات العثمانية بقيادة سليمان عسكري بك ومعها قوات المتطوعين وبدأت بمناوشة القوات البريطانية، وبدأ الهجوم الفاصل صباح يوم (12 نيسان 1915)، ولكنه كان هجوماً "فاقداً" لعنصر المباغتة، نظراً لما سبقته من شواهد دالة عليه فقام البريطانيون بهجوم مضاد اسفر عن انتصار كاسح للقوات البريطانية وابداء قسم كبير من القوات العثمانية، وتعتبر موقعة الشعيبة من المواقع الحاسمة في تاريخ عملية الاحتلال البريطاني للعراق، اذا فتت معنويات القيادة العثمانية وخاصة عند انتحار القائد سليمان العسكري، كما اوجدت الشكوك بين الناس في امكانية صمود العثمانيين امام الغزو البريطاني، واعتبرت معركة الشعيبة مأساة تاريخية هامة بالنسبة للعثمانيين⁽¹⁰⁾.

بعد هزيمة العثمانيين في القرنه والشعيبة تقهقرت قواتهم نحو العمارة والناصرية بيد ان القوات البريطانية لاحقتها، واتجهت قوة برية ومائية في دجلة الى العمارة فاحتلتها في (2 حزيران 1915)، كما احتلت قوة اخرى، اتجهت في الفرات، الناصرية في (25 تموز) بعد معارك دامية، وهكذا تم للبريطانيين السيطرة

على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية، واصبحت ولاية البصرة كلها تقريباً، تحت الاحتلال البريطاني⁽¹¹⁾.

وقد شجع احتلال ولاية البصرة والانهيال السريع للمقاومة العثمانية، القادة العسكريين البريطانيين على طلب التقدم نحو بغداد، ووضح السير برسي كوكس، رئيس حكام الحملة السياسيين في برقية بعثها الى نائب الملك في الهند، بأنه لا يرى كيف يمكن ترك احتلال بغداد، وقد اخذت حكومة الهند على عاتقها تحقيق فكرة الزحف نحو بغداد بعد تعيين الجنرال جون نيكسون الى القيادة في ما بين النهرين في 9 نيسان 1915 وخولته بالزحف على بغداد، "اذا كان مقتنعاً بأن القوة المتوفرة لديه تكفي للقيام بالعمليات المطلوبة".

تقدمت الحملة البريطانية عن طريق دجلة بأنحاء بغداد، وكانت بقيادة الجنرال طاووزند TOWNSHEND، الذي كان يعتقد في ضوء خبرته السابقة ضعف مقاومة الاتراك وان قواته لن تجد صعوبة في احتلال بغداد، اما العثمانيون فقد عمدوا الى تجميع قواتهم المنحجرة، وشكلوا لجنة لتحصين مدينة بغداد للدفاع عنها. وحدثت اول معركة بين الطرفين بالقرب من الكوت في (27 ايلول 1915) استمرت نحو عشرين ساعة واشترك فيها الاسطولان النهريان البريطاني والعثماني، وانتهت بانتصار البريطانيين وانسحاب العثمانيين الى خطوط دفاعية جديدة اقاموها قرب المدائن، بعد ان خسروا (17) الف قتيل وجريح و 1289 اسيراً، ثم واصل البريطانيون تقدمهم نحو بغداد بعد استعدادات دامت ستة اسابيع.

استعد العثمانيون بقيادة نور الدين لملاقاة البريطانيين قرب المدائن، وحصلوا على امدادات عسكرية من الاناضول، كما وصل الى بغداد الجنرال الالمانى فون در كولتز VON DER GOLTS لتنظيم الدفاعات العثمانية عن مدينة

بغداد. وفي يوم (14 تشرين الثاني) هاجمت القوات البريطانية القوات العثمانية ودارت معركة ضارية بين الجانبين، وخلال المعركة عززت القوات العثمانية بفرقة جديدة بقيادة خليل بك الأمر الذي مكّن العثمانيين من توجيه ضربة قوية. اضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب والتراجع نحو الكوت بعد أن تكبدت خسائر فادحة بلغت في يوم (22 تشرين الثاني) وحده (4511) قتيلاً⁽¹²⁾.

استغلت القوات العثمانية الانكسار البريطاني في المدائن، وقامت بتعقب القوات البريطانية المتراجعة، وتمكنت من محاصرة البريطانيين في مدينة الكوت في (7 كانون الأول 1915) وقد استمر الحصار حوالي خمسة أشهر، ذاق فيها البريطانيون ويلات الحصار، فاكلوا الحوم الخيل وخلعوا ابواب وشبابيك البيوت لاستعمالها في الوقود. وقد حاول البريطانيون عدة مرات انقاذ جيشهم المحاصر دون جدوى، واجروا مفاوضات مع العثمانيين لرفع الحصار مع استعادتهم لدفع مليون أو مليوني ليرة لخليل باشا قائد القوات العثمانية، لكنه امتنع عن قبول هذه الرشوة، واضر على التسليم دون قيد أو شرط، فأضطر البريطانيون إلى الاستسلام في يوم (29 نيسان 1916) بعد أن ا تلفوا سلاحهم ومعداتهم وبلغ عدد القوات التي استسلمت (13500) جندي عدا الضباط وارسل هؤلاء اسرى إلى الاناضول. ويصف موبرلي MOBERLY تسليم الكوت بأنه كان نهاية محزنة لمشروع كان الهدف منه احتلال بغداد، وان خسائر البريطانيين منذ البداية حتى تسليم الكوت كانت كبيرة إذا بلغت (40) الفاً بين قتيل واسير، واخيراً فإن تسليم الكوت كانت ضربة قوية لسمعة البريطانيين⁽¹³⁾.

لم يستمر العثمانيون الهزيمة البريطانية في الكوت لمحاولة التقدم إلى جنوب العراق واعادة احتلاله وطرد البريطانيين منه، وانما ارسلوا قواتهم إلى إيران لمحاربة القوات الروسية، مما اضعف القوات العثمانية الموجودة في

العراق، ومكن البريطانيين من تعزيز قواتهم من جديد وخاصة بعد تولي الجنرال مود قيادة هذه القوات التي بدأت باستئناف الهجوم ضد العثمانيين منذ اوائل عام 1917، ودارت معارك هائلة بين الجانبين تضعف فيها مركز العثمانيين الذين اضطروا الى الانسحاب من الكوت الى المدائن يوم (27 شباط) وتحصنوا فيها، لكن البريطانيين استمروا في تقدمهم نحو المدائن مما دفع العثمانيين الى الانسحاب نحو نهر ديارى في (8 اذار)، ثم انسحبوا من بغداد، فدخلها البريطانيون بقيادة الجنرال مود فجر يوم (11 اذار 1917) (14).

كان لاحتلال بغداد من قبل البريطانيين اثاره السياسية والعسكرية والنفسية على الوجود العثماني في مناطق العراق الاخرى، وقد وصل البريطانيون تقدمهم نحو شمال العراق فاحتلوا سامراء في (22 نيسان) والرمادي في (29 ايلول). وتكريت في (6 تشرين الثاني 1917)، وبقي الجيش البريطاني عند الفتحة جنوب الشرقاط، حتى اواخر تشرين الاول 1918، وكان على بعد 12 ميلاً من مدينة الموصل عند عقد الهدنة في (30 تشرين الاول 1918)، فطلب قائد القوات البريطانية الجنرال مارشال، (وكان قد تولى قيادة هذه القوات بعد موت الجنرال مود بمرض الكوليرا في 19 تشرين الثاني 1917) من علي احسان باشا قائد القوات العثمانية في المدينة مغادرتها، وجرت مفاوضات بين الجانبين وافق فيها العثمانيين على الجلاء عن المدينة، ورفع العلم البريطاني عليها في (8 تشرين الثاني 1918). وهكذا انتهت الاعمال العسكرية بعد ان امتدت زهاء اربع سنوات، وخضع العراق للإدارة البريطانية وقد كلف احتلال العراق البريطانيين خسائر فادحة قدرتها المصادر البريطانية، بحوالي مائة الف قتيل وجريح، هذا فضلاً عن الخسائر المادية الهائلة، لهذا يمكن القول ان العراق كان من الجبهات الاساسية التي استنزفت العدد الكبير من الرجال والمال الوفير (15).